العلاقة التكاملية بين النظرية والمنهج في إطار البحث العلمي الاجتماعي

د. ماجد ملحم أبو حمدان*

الملخص

العلاقة التكاملية بين النظرية والمنهج في إطار البحث العلمي الاجتماعي تعالج هذه الدراسة، مسألة العلاقة بين النظرية الاجتماعية والمنهج، في إطار البحث، مستخدمة المنهج الوصفي التحليلي الاستدلالي في الدراسة، فتناولت إسهامات النظرية والمنهج، في تنمية المعرفة العلمية الاجتماعية وتطويرها، وركزت على مسألة استخدام النظرية في البحث، موضحة وجهتي نظر: الأولى تفصل بين النظرية والمنهج، والثانية تنظر إلى النظرية كنظرية وكمنهج في آن معاً. تنبع أهمية الدراسة، من أهمية النظرية والمنهج في تمكين الباحث من الوصول إلى النتائج العلمية في البحث، هدفت الدراسة إلى تعرُّف كيفية صياغة نظرية جديدة من خلال تغيير أو تعديل الإجراءات المنهجية أثناء إنجاز البحث وفقاً لمستجدات العمل الميداني، وتعرُّف آلية عمل النظرية والمنهج في سياق البحث. وقد خلصت الدراسة إلى بعض النتائج منها: إن العلاقة بين النظرية الاجتماعية والمنهج علاقة تفاعلية تبادلية، فدور كل منهما يكمل دور الآخر، وجود فوارق جوهرية في المداخل النظرية والإجراءات المنهجية عند دراسة الظاهرة الاجتماعية نفسها من قبل باحثَيْن ينتميان إلى مدرستين مختلفتين في علم الاجتماع، إمكانية الانتقال بالتعاريف المفاهيمية المعقدة، من خلال صياغة التعريفات الإجرائية المناسبة، من المستوى المفاهيمي – النظري إلى المستوى التجريبي – الملاحظ.

* أستاذ مساعد في قسم علم الاجتماع – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق.

The integrative relationship between theory and method in the framework of social scientific research

Dr. Majed Mulhem Abou Hamdan*

Research Summary

The Integral Relationship between the Theory and The Method in the framework of Scientific Social Research

This study approaches the relationship between social Theory and the Method, in the framework of the research using analytical descriptive Method in the study , so it handled the contributions of theory and the Method in promoting and developing the scientific social knowledge , and focused on the issue of using the theory in the research , illustrating both viewpoints : the first separates between theory and the Method, while the second views the theory as a theory and the Method at the same time . The importance of the study springs up from the importance of the theory and the Method in enabling the researcher to reach scientific results in the research . The study aimed at recognizing how to form a new theory through changing or modifying methodology procedures during the performance of the research in accordance with the updates of field work , and to recognize the mechanism of the theory and the Method act in the course of the research . The study came out with some results such as:

The relationship between the social theory and the Method is reactive and mutual , since the role of each integrates the other , with core distinction in theoretical entrances and the methodological procedures at handling the social phenomena in itself by two researchers of two different trends in sociology , the possibility of transferring the complex conceptual identifications, through forming due perceptual identifications from the conceptual level – theoretically to experimental level – recognized .

* Associate professor - Department of Sociology- Damascus university -Faculty of Human Sciences and Arts- Syria

يتطلب إنجاز البحث العلمي الاجتماعي من الباحث الاستثمار الأمثل للنظرية الاجتماعية والمنهج العلمي؛ وهذا يرتب على الباحث الاجتماعي الاختيار المناسب للنظرية الاجتماعية والمنهج العلمي الملائمين لطبيعة الظاهرة المدروسة، فتحقيق التوافق بين النظرية الاجتماعية والمنهج العلمي من جهة، وبينهما وبين طبيعة الظاهرة الاجتماعية التي تشكل موضوع الدراسة من جهة ثانية، يمكّن الباحث من تحقيق الأهداف العلمية المرجوة من إنجاز البحث.

إن تميُّز الباحث ومهاراته البحثية تبدو جلية في مدى قدرته على تحقيق العلاقة التكاملية بين النظرية الاجتماعية والمنهج العلمي في إطار تنفيذ البحث العلمي الاجتماعي.

لقد شهد تاريخ علم الاجتماع مجموعتين من علماء الاجتماع، المجموعة الأولى: حاول أنصارها التوصل إلى تعميمات، والبحث عن الطرق التي تمكنهم من صياغة القوانين السوسيولوجية، متجاهلين أهمية جمع الملاحظات والبرهنة على هذه التعميمات والقوانين.

المجموعة الثانية: اهتم أنصارها بإجراء البحوث الأمبريقية دون الاهتمام بالربط بين وقائع هذه البحوث وتفسيرها، والبحث عن دلالاتها النظرية.

وبنتيجة التطور العلمي في مجال البحوث السوسيولوجية لم نعدْ نرى في يومنا هذا نموذج عالم الاجتماع الذي يهتم فقط بالقوالب الفكرية الخالصة دون إدراك صلتها بالواقع، كما لم نعد نلحظ نموذج عالمِ الاجتماع الذي يقع فريسة الوقائع ويغرق في الإحصاءات، ويبتعد عن تفسير هذه الوقائع من خلال الأُطُر النظرية القائمة في علم الاجتماع. إن هذا التوجه يؤكد أهمية العلاقة التفاعلية بين النظرية والبحث (انظر: جلبي، 1984، 149 – 150).

تتحدد طبيعة كل علم وقيمة ما ينجزه من بحوث من خلال ثلاثة معايير:

1– موضوعه: ويقصد به الظواهر والمسائل والمشكلات التي يتصدى هذا العلم لمعالجتها، وتشكل محور اهتمامه وبنيته. وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة التمييز بين موضوع العلم ومجاله، فعلى سبيل المثال، يشكل المجتمع مجالاً للعلوم الاجتماعية بمجملها، بينما يرتبط موضوع كل علم بجانب من جوانب المجتمع، وهذا ما يميِّز العلوم من بعضها بعضاً.

2 – **منهجه أو مناهجه:** يمتاز كل علم بمنهجه أو بمناهجه التي يستخدمها الباحثون في إطار هذا العلم في إنجاز بحوثهم، وما تتسم به من خصائص ملائمة لطبيعة موضوعه، ومدى صلاحيتها للوصول إلى نتائج معرفية وحلول عملية يُمكِنها أن تشكّل مصدراً خصباً لوضع معالم نظرية أو مدخل نظري يفيد في دراسة الظواهر وتفسيرها.

3 – **هدفه:** وما يحققه من خلال الوظيفة التي يؤديها هذا العلم من أهداف تتمثل في تحقيق فائدة علمية وقيمة مادية ومعنوية؛ وهذا لا يمكن أن يتمَّ إلا من خلال العلاقة الجدلية بين المنهج والمداخل النظرية التي تتحقق في إطار البحث العلمي (انظر: أجغيم، 2010، 326). وهذا يعني أنه لا يجوز الفصل التعسفي بين منهج البحث، والإطار النظري للبحث أثناء تنفيذ البحث." فالوقائع المكتشفة تفقد من قيمتها حينما لا تستند إلى إطار النظرية الذي ينظمها. تزود النظرية العالِم بالمخطَّط الرئيس الذي ينظم الوقائع ويترجمها إلى أفكار تفسر هذا العالَم" (مجذوب، 2003، 70).

أولاً: تحديد مشكلة البحث:

عاصرت ولادة علم الاجتماع وجود علوم سابقة عليه، وبخاصة في مجال العلوم الطبيعية، تتصف بالنضج، وامتلاك المنهج العلمي والنظرية؛ الأمر الذي مكَّن هذه العلوم من إنجاز البحوث العلمية الكثيرة التي أتاحت للباحثين – في مجالات متعددة – تحقيق نتائج علمية باهرة ونوعية في مضمار تطوير العلوم الطبيعية؛ الأمر الذي دفع بالرواد الأوائل في علم الاجتماع، إلى الاستفادة من إنجازات هذه العلوم التي انعكست فوائدها على المجتمع والأفراد، لذلك حاول هؤلاء الرواد استخدام المنهج العلمي المستخدم في دراسة ظواهر العلوم الطبيعية، في دراسة ومعالجة ظواهر المجتمع، فدرسوها على غرار دراسة ظواهر العلوم الطبيعية.

وبما أن المنهج والأدوات المنهجية عنصران أساسيَّان في البحث العلمي للعلوم الطبيعية، لأنهما على ما يؤكد ميرتون" لا يختلفان كثيراً بين نطاقات العلوم المختلفة، ومن ثم فقد نقلهما علم الاجتماع عنها، أما بالنسبة للنظريات فقد اتضحت ضرورة أن يكرس علم الاجتماع جهده لبنائها" (ليلة، د. ت. ن.، 43).

ونظراً لأهمية البحث العلمي في تطوير العلوم والمجتمعات والارتقاء بها إلى أفضل المستويات، ستعالج هذه الدراسة العلاقة بين النظرية الاجتماعية والمنهج العلمي في

إطار البحث العلمي الاجتماعي، حيث إن كليهما يسهم في إنجاح البحث أو فشله؛ وهذا يتوقف على مدى قدرة الباحث على فهم العلاقة التكاملية السليمة القائمة بينهما.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدراسات والبحوث التي يتم استغراقها في النظرية تصبح أقرب إلى الفلسفة، وتفقد صلتها بعلم الاجتماع، كما أن البحوث التي يتم استغراقها في الإجراءات المنهجية غالباً ما تفقد هويتها المعرفية، وتصبح إجراءات بلا معنى، وفي الحالتين يفقد البحث الاجتماعي هويته المعرفية.

إن الباحث من خلال رؤيته المسبقة لموضوع البحث، أو للمشكلة، يستطيع معرفة العلاقة بين النظرية والمنهج، ويستطيع اختيار نظريته، مع الإجراءات المنهجية المناسبة لها، ويدعو ذلك إلى ضرورة التركيز على مفهوم الرؤية بوصفها حلاً لمسألة العلاقة بين النظرية والمنهج، ذلك أن الباحث الذي لا يملك الرؤية الشمولية لبحثه، قد ينجرف في أحد المسلكين، ويفقد البحث في علم الاجتماع هويته.

كما ستحاول هذه الدراسة، الكشف عن كيفية استخدام مكونات النظرية الاجتماعية، من خلال استخدام نظريتين اجتماعيتين في علاج ظاهرة اجتماعية واحدة من قبل باحثين ينتمون إلى اتجاهين أو مدرستين مختلفتين في علم الاجتماع، بغية الكشف عن الأسس العلمية، لتوظيف المفاهيم والمقولات العلمية للنظرية الاجتماعية، في خلق آلية موضوعية منهجية تستخدم في فهم الظاهرة الاجتماعية، وتحليلها، وتفسيرها ، وتحديد الظروف الاجتماعية والأسباب التي أدت بوجودها إلى حدوث الظاهرة.

من هنا ستركز هذه الدراسة على الإجابة عن التساؤل الرئيس الآتي: ما طبيعة العلاقة القائمة بين النظرية الاجتماعية والمنهج العلمي في إطار البحث العلمي الاجتماعي؟

ويتفرع عنه التساؤلات الآتية:

1- ما وظيفة النظرية الاجتماعية في إطار البحث العلمي الاجتماعي؟

2- ما وظيفة المنهج العلمي في إطار البحث العلمي الاجتماعي؟

3- كيف يمكن للباحث استثمار النظرية الاجتماعية كمنهج علمي في البحث الاجتماعي؟

4 – كيف يمكن للباحث استخدام المنهج العلمي في صياغة نظرية جديدة، أو تعديل نظرية قائمة؟

5 – هل يوجد اختلافات جوهرية في المداخل النظرية والإجراءات المنهجية، المتبعة في دراسة الظاهرة الاجتماعية الواحدة من قبل باحثين ينتمون لمدارس فكرية مختلفة؟

ثانياً: أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في تسليط الضوء على مسألة مهمة بالنسبة لإنجاز البحث العلمي الاجتماعي، تتمثل في توضيح العلاقة القائمة بين النظرية الاجتماعية ومنهج البحث العلمي، فالوصول إلى النتائج المرجوة من البحث يتطلب تحقيق أقصى درجات التكامل بين نظرية البحث ومنهجه في المراحل المختلفة لتنفيذ البحث، والباحث يسعى في بحثه هذا للإسهام في الإضاءة على أفضل الأسس والإجراءات المنهجية التي تمكِّن من تحقيق التوافق بين النظرية السوسيولوجية Sociological Theory ومنهج البحث Method من ناحية، وبينهما وبين مشكلة البحث من ناحية ثانية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة كذلك في أن المشكلات النظرية التي درسها الرواد الأوائل في علم الاجتماع (إميل دوركايم، كارل ماركس، ماكس فيبر وغيرهم من علماء الاجتماع الكلاسيكيين) والأسئلة التي حاولوا الإجابة عنها مازالت تتمتع بأهمية كبيرة حتى يومنا هذا، ومن هذه الأسئلة على سبيل المثال:

" – مم يتكون المجتمع؟ – كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ – لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ – ما الذي يسبب التغير الاجتماعي؟– هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟ ..." (كتب عربية، 2002، 18– 19). إن هذه الأسئلة بحاجة للإجابة عنها وفهم مدلولاتها وتحليل مضامينها وتفسيرها تفسيراً علمياً، ولتحقيق ذلك لا بد من الاستفادة القصوى من النظرية الاجتماعية والمنهج العلمي أثناء إنجاز البحث العلمي الاجتماعي.

كما يأمل الباحث في محاولته المتواضعة هذه أن يسهم في تقديم إضافة علمية جديدة تضاف إلى الإسهامات التي توصل إليها الباحثون السابقون في مجال هذا البحث.

ثالثاً: أهداف البحث:

يهدف الباحث من وراء هذا البحث إلى تعرف ما يأتي:

1– وظيفة النظرية الاجتماعية في إطار البحث العلمي الاجتماعي.

2– وظيفة المنهج العلمي في إطار البحث العلمي الاجتماعي.

3– آلية استثمار النظرية الاجتماعية كمنهج علمي في البحث الاجتماعي.

4 – آلية استخدام المنهج العلمي في صياغة نظرية جديدة، أو تعديل نظرية قائمة.
5 – الاختلافات الجوهرية في المداخل النظرية والإجراءات المنهجية المتبعة في دراسة الظاهرة الاجتماعية الواحدة من قبل باحثين ينتمون لمدارس فكرية مختلفة.

رابعاً: المفاهيم ،والمصطلحات العلمية:

1– البحث العلمي:

عُرِّف البحث العلمي بأنه" البحث النظامي والمضبوط الخبري Empirical في المقولات الافتراضية عن العلاقات المتصورة بين الحوادث الطبيعية" (عاقل، 1982، 35).

وعُرِّف البحث العلمي أيضاً بأنه " مجموعة الجهود المنظمة التي يقوم بها الإنسان مستخدماً الأسلوب العلمي وقواعد الطريقة العلمية في سعيه لزيادة سيطرته على بيئته واكتشاف ظواهرها وتحديد العلاقات بين هذه الظواهر" (عبيدات وآخرون، 1985، 42).

انطلاقاً مما سبق يمكن تعريف البحث العلمي بأنه: استقصاء منظم يتم وفقاً لمنهج علمي يجمع بين العمليتين الأمبريقية والعقلانية المنطقية، يمكّن الباحث من معالجة مشكلة بحثه، ومن كشف العلاقات القائمة بين متغيراتها، ومن الوصول إلى معارف جديدة تساعده في وضع حلول لمشكلة بحثه.

2– المعرفة العلمية:

هي المعرفة التي يثبت صدقها من خلال الاستنتاج العقلي وأدلة الحواس.
(فرانكفورت، ناشميناز، 2004، 35).

3– النظرية:

تعرَّف النظرية بأنها" مجموعة من البناءات والافتراضات التي تحدد العلاقات بين المتغيرات بغرض تفسير الظواهر والتنبؤ بها" (أبو زينة وآخرون، 2007، 18).

كما تعرَّف النظرية بأنها" مجموعة مصاغة من المفاهيم التي تُنَظّم ملاحظاتنا واستدلالاتنا. كما أنها تتنبأ بالظواهر وتفسرها" (مجذوب، 2003، 69).

وبعبارات مجازية، إن النظريات كما فسَّر كارل بوبر Popper هي" شبكات هدفها أسر هذا الذي ندعوه" العالَم" لجعله منطقياً قابلاً للتفسير والسيطرة" (Popper, 1973, 57).

إن العلماء يفضلون" النظرية البسيطة والواضحة، على النظرية المعقَّدة في حال كانت النظريتان تتساويان من ناحية الصدق التنبئي. كما يفضل العلماء النظرية الواحدة التي تفسر عدة ظواهر مختلفة، على مجموعة نظريات تفسِّر جميعها مجموعة الظواهر ذاتها" (مجذوب، 2003، 70 – 71).

4 – المنهجية:

يقصد بالمنهجية" المبادئ والأسس التي يستند إليها العلم التي يستعين بها في تحصيل المعرفة حول ظواهره. وقد حددت هذه الأسس والمبادئ التي تحكم عملية دراسة الظاهرة الاجتماعية وهي عامة وتتسق في منطقها مع منطق المبادئ المنهجية الأساسية لنسق التفكير العلمي" (شتا، 1995، 43).

5 – المنهج العلمي:

يعرف بأنه" الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بوساطة طائفة من القواعد العامَّة المهيمنة على سير العقل وتحديد عمليَّاته حتى يصل إلى نتيجة معلومة، (بدوي، 1977، ص5).

6 – الطريقة المنهجية:

يقصد بها مجموعة القواعد والإجراءات المنهجية التي تنظم مسار البحث، وتتطلب من الباحث التقيد بقواعد المنطق والملاحظة، ويتم اختيارها وفقاً لطبيعة الظاهرة موضوع الدراسة.

7 – الاستقراء:

يقصد بالاستقراء" تتبع الجزئيات للتوصل إلى حكم كلي. وهو أسلوب من أساليب الحكم المنطقي. ويتشكل بفضل قراءة عدة حالات ومن ثم التعميم. ويستخدم هذا الأسلوب عندما تتم دراسة حقائق جديدة أو يتم اكتشافها. لذا فإن التعميم يتم على هذا الأساس" (الضامن، 2007، 25). والمثال على ذلك: اكتشاف قانون تمدد المعادن بالحرارة، حيث تمَّ التوصل إليه على مراحل خلال التجريب على كل معدن على حدة، والحصول نتيجة ذلك على مجموعة من العلاقات الجزئية التي استقرئ منها في النهاية علاقة قانونية عامة عُمِّمَت على كل المعادن، ومفادها: أن المعادن تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة، وقد استُثْمِر هذا القانون من قبل المهندسين في بناء الجسور وغيرها من المنشآت الأخرى.

8 – الاستدلال:

" الاستدلال عملية عقلية تمثل تطبيق العام على الخاص. وهذا الانتقال من العام إلى الخاص أسلوب جيد في حل المشكلات، ولكنه ليس مفيداً في الوصول لحقائق جديدة. ويستطيع الأسلوب الاستقرائي أن يتغلب على هذه الجوانب" (الضامن، 2007، 26). ويرتكز الاستدلال بشكل رئيس على القياس Syllogism، ويتكون القياس من مقدمة رئيسة ومقدمة فرعية يستدل منهما على النتيجة. مثال كل الطلبة الجامعيين

حاصلين على الشهادة الثانوية (مقدمة كبرى). سمير طالب جامعي (مقدمة صغرى). سمير حاصل على الشهادة الثانوية (نتيجة). ويعد المنطق الاستدلالي صحيحاً إذا كانت المقدمات التي يرتكز عليها صحيحة.

المنطق الاستدلالي" مفيد في ربط النظرية بالملاحظة. والاستدلال من النظرية يساعدنا في بناء الفرضيات والتي تعد جزءاً حيوياً للأسئلة العلمية" (الضامن، 2007، 28).

9 – التفسير:

يهدف التفسير إلى" معرفة سبب وجود الظاهرة، أي معرفة العوامل التي تؤدي إلى حدوث الظاهرة. ويلحظ أن تفسير الظاهرات العلمية ليس تفسيراً دائماً فقد تضطرنا الحاجة إلى تعديل تفسير قديم أو استبداله كلية إذا ظهرت شواهد تضطرنا إلى ذلك. وكلما تقدمت عملية البحث فإن المعرفة تزيد عن أسباب الظاهرات. ومع زيادة المعرفة تأتي القدرة على التنبؤ بالظاهرات والسيطرة عليها" (أبو علام، 2007، 22).

10 – التعريف الإجرائي:

" يُعرِّف المفاهيم والتكوينات بتحديد الأنشطة أو" الإجراءات" الضرورية لقياسها. وبمعنى آخر فإن التعريف الإجرائي هو توصيف للأنشطة التي يستخدمها الباحث في قياس متغير ما أو معالجته. أي أن الباحث يحدد معنى المفهوم أو التكوين بذكر الإجراءات التي يستخدمها لقياسه" (أبو علام، 2007، 50).

خامساً: منهج البحث:

تصنف هذه الدراسة في إطار الدراسات النظرية (المكتبية)، حيث تعتمد على أدبيات علم الاجتماع المنجزة حول النظرية والمنهج في العلوم الاجتماعية بشكل عام، وفي علم الاجتماع بشكل خاص، ويسعى الباحث هنا إلى استخلاص النتائج حول العلاقة التكاملية التبادلية بين النظرية الاجتماعية ومنهج البحث في إطار البحث العلمي الاجتماعي. يستخدم الباحث في دراسته هذه المنهج الوصفي التحليلي الاستدلالي، لأنه يمكِّن الباحث من تقديم توصيف دقيق للظاهرة قيد الدراسة، من جوانبها كافة؛ وهذا يتيح للباحث تحليل الظاهرة إلى المكونات الأساسية لها، ثم تحديد العلاقات التي تربط بين متغيراتها، واستثمار ذلك في صياغة تفسير علمي للظاهرة موضوع الدراسة.

سادساً: إسهامات النظرية الاجتماعية في إنجاز البحث الاجتماعي:

إن التوصل إلى بناء النظرية والتحقق منها، يعدُّ هدفاً رئيساً من أهداف العلم، وهي بدورها " تتنبأ بالظواهر الطبيعية وتفسرها. إن اختلاف سرعة الضوء عن سرعة الصوت مثلاً يفسر لنا رؤية البرق قبل سماع صوت الرعد. والنظرية مجموعة من البناءات

والافتراضات التي تحدد العلاقات بين المتغيرات بغرض تفسير الظواهر والتنبؤ بها" (أبو زينة وآخرون، 2007، 18). وتمتاز النظرية العلمية بإمكانية اختبارها، وتتطلب كذلك أساساً إمبريقياً متيناً من البرهان يؤكده الواقع. لقد بنى سكينر Skinner نظرياته على ملاحظاته المكثَّفة للبيانات وقد كان حريصاً دائماً على عدم تعميم النظرية إلى كل ما يتجاوزها، لأنه يرى وجود خطر كبير ينجم عن طرح نظريات تتجاوز البيانات، متضمنة عمليات لا تلحظ بشكل مباشر (انظر: مجذوب، 2003، 71).

تسهم النظرية الاجتماعية، من خلال الوظائف التي تؤديها أثناء إنجاز البحث العلمي، في تمكين الباحث الاجتماعي من تحقيق الأهداف المرجوة من البحث، فتزوده بفهم أعمق لما يحيط به من ظواهر متنوعة، وتتيح له تفسيرها تفسيراً منطقياً" لكن عملية تطوير النظرية ذاتها، والمضي بها قدماً تأتي من خلال وظيفة أخرى مهمة للنظرية وهي" توليد الأفكار"، بمعنى أن كل نظرية بمفردها، أو مجموعة نظريات متفاعلة، هي خصبة بما فيه الكفاية لإنتاج أفكار جديدة، وتبدو هذه المهمة واضحة في المحاولات التوليفية، والتجسيرية، وصياغة النماذج النظرية" (الحوراني، 2008، 17). فقد ذهب الباحث الأمريكي هارولد فالدنج Faldings إلى أن النظرية العلمية يجب أن تمتاز بقدرة تفسيرية، وعلى هذا يمكن إيجاز أهم الوظائف التي تؤديها النظرية العلمية بما يأتي:

1 – تساعد النظرية أي علم على تحديد هويته وموضوعاتها الأساسية الأمر الذي يسهم في إبراز دوره المعرفي التراكمي ...

2 – تعدُّ النظرية العلمية نقطة الانطلاق المهمة حيث تمد الباحث بإطار تصوري يساعده على تحديد الأبعاد والعلاقات التي عليه أن يدرسها، وتمهد له الطريق لجمع معطياته وتنظيمها وتصنيفها وتحديد ما بينها من ارتباطات وعلاقات.

3 – تؤكد خبرات البحث العلمي أن جمع بيانات بلا نظرية موجهة يسلمنا إلى بيانات صماء عمياء فاقدة المعنى والوظيفة، و بالقدر نفسه تعد النظرية العلمية بلا معطيات وبيانات عملاً خاوياً ومحض مفهومات ومصطلحات مجردة " (جونز، 2010، 21 – 22).

وبما أن النظريات والملاحظات تشكل ركنا العلم، فمن الطبيعي أن يعمل البحث العلمي على مستويين:" المستوى النظري Theoretical level والمستوى التجريبي Empirical level. ويهتم المستوى النظري بتطوير مفاهيم مجردة Abstract concepts حول ظاهرة طبيعية أو ظاهرة اجتماعية والعلاقات بين تلك المفاهيم (مثل بناء"

النظريات")، بينما يهتم المستوى التجريبي باختبار المفاهيم النظرية والعلاقات لرؤية كيف سيتوافقا مع ملاحظاتنا للواقع " (باتشيرجي، 2015، 19).

إن الغاية التي يسعى إليها العلم في النهاية هي التطبيق Applied. فالعلماء يهدفون في دراساتهم لظواهر الطبيعة والمجتمع الكشف عن القوانين التي تحكمها، ويستخدمون نتائج دراساتهم للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لمصلحة المجتمع،" والنظرية العلمية بما أنها تلخيص لكل الحقائق التي اكتشفها العلماء تقوم بمهمة ترشيد؛ أي توجيه التطبيقات العلمية في مجالات الحياة المختلفة، فقوانين الطفو مثلاً ساعدت على بناء السفن، ونظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات وهكذا" (جونز، 2010، 25).

ومن معايير كفاءة النظرية:

أن تكون المفهومات التي تعبر عن القضايا محددة بدقة، وأن تتسق القضايا الواحدة مع الأخرى، وأن توضع القضايا في شكل يجعل من الممكن الاشتقاق من التعميمات القائمة اشتقاقاً استنباطياً، وأن تكون هذه القضايا خصبة ومثمرة، تفتح الطريق لملاحظات أبعد مدى، وتعميمات تنمي مجال المعرفة بدرجة أكثر" (انظر: ليلة، د. ت. ن.، 46).

وعند الحكم على أهمية النظرية يجب ألا نقيمها من منظار الخطأ والصواب، بل من خلال مدى فائدتها في تنظيم المعلومات، وتفسير الظواهر، ومساعدة الباحث في التوصل إلى تنبؤات دقيقة لمستقبل الظاهرة المدروسة.

سابعاً: إسهامات المنهج العلمي في إنجاز البحث الاجتماعي:

أما بالنسبة للمنهج العلمي يُعدُّ أداة العلم الرئيسة لتحقيق المهام العلمية الآتية:

"1- جمع المعلومات والبيانات العلمية الدقيقة حول المجتمع وظواهره.

2- صياغة النظريات المفسرة للواقع الاجتماعي.

3- التحقق من صحة النظرية المصاغة حول الواقع الاجتماعي.

4- تطوير الصياغات النظرية التفسيرية في ضوء معطيات الواقع بعد اختبارها" (شتا، 1995، 40).

يتضمن البناء المنهجي لعلم الاجتماع عدة عناصر أساسية تتمثل في "المداخل المنهجية، والطرق المنهجية، والأساليب المنهجية، والأدوات المنهجية، وعلى الرغم من وضوحه واتفاق العلماء عليه إلا أن نوع الدراسة، ومستوى التحليل الذي يسعى به الباحث لاختبار فروضه، يحدد إلى درجة كبيرة نوع المدخل والطريقة والأسلوب، والأداة المناسبة

لمعالجة الموضوع وجمع البيانات الكافية حوله، بما يساعد على فهم الظاهرة الاجتماعية وصياغة التنبؤات حولها" (شتا، 1995، 54 – 55).

إن هذا يرتب على الباحث الاجتماعي – للوصول إلى النتائج المرجوة من إنجاز البحث – أن يحقق التوافق والانسجام بين الإجراءات المنهجية التي سيستخدمها في إنجاز البحث و موضوع الدراسة، وهذا يعتمد على قدرات ومهارات الباحث وخبراته العلمية والعملية، ومدى فهمه لطبيعة الظاهرة المدروسة، والمتطلبات المنهجية اللازمة لمعالجتها.

ثامناً: الآليات المنهجية الضرورية لمعالجة الظاهرة الاجتماعية:

بعد أن استعرضنا بشكل مختصر للوظائف المتوقع أن تسهم بها النظرية في إنجاز البحث العلمي، وكذلك بالنسبة للوظائف المتوقع أن يسهم بها منهج البحث العلمي، نطرح السؤال الآتي: هل تختلف المداخل النظرية والإجراءات المنهجية اللازمة لمعالجة الظاهرة الاجتماعية نفسها في حال دُرِستْ من قبل باحثين ينتمون لمدارس فكرية مختلفة؟

تتطلب الإجابة عن هذا السؤال من الباحث أن يفترض ظاهرة اجتماعية معينة، ويرسم تصوراً للمدخل النظري، وللإجراءات المنهجية التي سينطلق منها الباحثان اللذان ينتميان لمدرستين فكريتين مختلفتين في دراستهما للظاهرة نفسها، مثلاً، دراسة ظاهرة الانتحار.

إن الباحث الاجتماعي يرى طبيعة الظاهرة الاجتماعية والعوامل المفسرة لها من خلال المفاهيم والمقولات النظرية التي تتكون منها النظرية، فعلماء الاجتماع الوضعيين يتبنون الرؤية القائمة على مماثلة العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية، ويأخذون بمبدأ ضرورة اشتقاق الفرضيات الأساسية المفسرة للظاهرة من مبادئ النظرية الاجتماعية نفسها، فالتعاضد الاجتماعي عند دوركايم مثلاً، يقوم على مجموعة من المفاهيم المشتقة منه، فالفرد يكون متعاضداً بقوة عندما يكون متزوجاً ولديه أطفال، ومتدين، فكلما كانت هذه المؤشرات مرتفعة دلَّ ذلك على ارتفاع مستوى التعاضد، وانخفضت مقابل ذلك احتمالات الانتحار لديه، ولقد تطلب هذا التصور من دوركايم تعرُّف الحالة الاجتماعية للفرد (متزوج أو غير متزوج)، وعدد الأطفال، ومن ثم مظاهر التدين، ووفق هذا التصور فإن منهج البحث يهدف إلى التحقق من صحة النظرية، وهذا يرتب على الباحث أن يحدد الإجراءات المنهجية التي تتيح له اختبار فرضياته، وأن يعمل على استخلاص

المفاهيم المرتبطة بالنظرية بشكل جيد، وصياغة المؤشرات التي تساعد على قياس المفاهيم.

يبدأ الباحث كخطوة أولى بطرح سؤال البحث،" ما العوامل الاجتماعية للانتحار؟".

وكخطوة ثانية وللإجابة عن هذا السؤال على الباحث أن يستنتج أو يستقرئ وفق الافتراضات المرتبطة بموضوع بحثه، أو وفق ما يتوافر لديه من معرفة أمبريقية ناجمة عن التطبيق في دراسات سابقة أو معرفته الشخصية لأشخاص حاولوا الانتحار لأسباب اجتماعية؛ الأمر الذي يهديه، مثلاً، إلى معرفة أن فقدان الشخص لعمله من الأسباب الاجتماعية الدافعة للانتحار؛ وهذا يعني أن الباحث سيهتم، من أجل تقديم تفسير موضوعي للظاهرة الاجتماعية، بالبحث عن الأسباب الاجتماعية لحدوث الظاهرة، وهذا ما أكَّده دوركايم، حيث يرى أن الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية لا تكمن في الوعي الفردي، بل في الوعي الجمعي، ولذلك على الباحث السوسيولوجي أن يركز اهتمامه على الوعي الجمعي لمعرفة الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية. ويؤكد دوركايم ذلك عندما يقول: " يجب البحث عن السبب في وجود إحدى الظواهر الاجتماعية بين الظواهر الاجتماعية السابقة لها لا بين الحالات النفسية التي تمر بشعور الفرد" (دور كايم، 1988، 224).

ويرى دوركايم" أن لكل مجتمع من المجتمعات مزاجه الذي لا يملك أن يغيره بين عشية وضحاها، وبما أن لهذا الميل للانتحار منبعه داخل البنية الأخلاقية للجماعات، فمن المحتم أنه يختلف من جماعة إلى جماعة، وأنه يظل، في داخل كل جماعة، وخلال سنوات طويلة معادلاً لذاته بنحو ظاهر" (دوركايم،2011، 391 – 392). وهذا يعني أن معدل الانتحار لجماعة معينة يمتاز بثبات أكثر من ثبات معدل الوفيات العامة للجماعة نفسها، وذلك لأن" الشروط المتعددة التي تتعلق بها الصحة العامة تتغير من سنة إلى أخرى، بنحو أسهل بكثير من تغير مزاج الأمم" (دوركايم،2011، 392).

وقد يضع الباحث نتيجة لاستنتاجاته واستقراءاته حول موضوع البحث إجابات مؤقتة أخرى ليجيب عن سؤال البحث، مثلاً، " ضعف التزام الفرد بالتعاليم الدينية هو سبب الانتحار"، أو "عدم زواج الفرد هو سبب الانتحار ...وهكذا".

في الخطوة الثالثة يقوم الباحث بتبني نظرية/ أو بناء نظرية أو فرضية أو فرضيات ترتبط بموضوع بحثه، كأن يتبنى نظرية التماسك الاجتماعي، أو يحاول بناء نظرية جديدة، ليستخلص فرضية أو فرضيات بحثه، فمثلاً، يستخلص من نظرية التماسك الاجتماعي الفرضيات الآتية: (لا يؤدي فقد الفرد لعمله إلى الانتحار) أو (لا يؤدي

ضعف التزام الفرد بالتعاليم الدينية إلى الانتحار) أو (لا يؤدي عدم زواج الفرد إلى الانتحار) الخ.

في الخطوة الرابعة يقوم الباحث من خلال جمع البيانات الميدانية وتحليلها بإخضاع الفرضيات لاختبارات أمبريقية للتأكد من مدى صحتها ومطابقتها للواقع. فإنْ أثبت الاختبار صحتها وتطابقها مع الواقع، يكون الباحث قد توصل إلى الإجابة عن السؤال الذي طرحه في بداية بحثه، وإن لم يثبت الاختبار الأمبريقي صحة النظرية والفرضية أو الفرضيات، ففي هذه الحال، ترفض النظرية أو تعدَّل وفقاً لما يحصل عليه الباحث من وقائع جديدة.

ويختلف الأمر إذا ما تمت معالجة الظاهرة وفقاً لمدرسة فكرية أخرى، فقد تصبح النظرية بحد ذاتها منهجاً للدراسة عندما يراد بها أن تكون طريقة للتفكير، لأن الباحث في هذه الحالة يحدد رؤيته للظاهرة ولأشكالها، والعوامل المؤدية إليها، وحتى الآثار المترتبة عليها من خلال المقولات النظرية نفسها، ومن ثمَّ فإن رؤية الباحث للظاهرة تحدّد تصوراته للعوامل المفسرة لها، انطلاقاً من المفاهيم والفرضيات المستمدة من النظرية التي يتبناها كإطار نظري لتفسير الظاهرة، لذلك لم يختر دوركايم عامل الفقر، مثلاً، كعامل يمكن أن يؤدي إلى الانتحار لأن مقولاته النظرية المرتبطة بنظرية التعاضد توجهه نحو فرضيات مستمدة منها، ومن ثمَّ تستبعد النظرية فرضيات محددة وتنتقي فرضيات مناسبة لتؤدي دور الموجه في البحث العلمي، ويندرج هذا الأمر على الإجراءات المنهجية اللاحقة ذات الصلة بتصميم أداة البحث، واختيار مجتمع الدراسة وحتى طريقة اختيار العينات، وطرق التحليل ومعالجة البيانات وغير ذلك، ووفقاً لهذا التصور تعدُّ النظرية منهجاً شاملاً للبحث على مستوى الرؤية وطريقة التفكير واختيار الفرضيات والتساؤلات، وكذلك على مستوى الإجراءات المنهجية التفصيلية ذات الصلة بالتطبيق.

وإذا كانت المسألة الأولى القائمة على فصل النظرية عن المنهج واضحة، فإن المسألة الثانية القائمة على اعتبار النظرية بحد ذاتها منهجاً تحتاج إلى مزيد من التوضيح والأمثلة، فعلى سبيل المثال، إذا أراد باحث ماركسي دراسة ظاهرة الانتحار، فإن طريقة تفكيره ورؤيته للمجتمع، لن توجهه نحو عوامل التماسك الاجتماعي بحسب نظرية دوركايم، بل نحو قضايا الفقر والطبقات والصراعات الطبقية، والنظرية الاجتماعية، في هذه الحالة، تعدُّ منهجاً في التفكير، بدلالة أن الباحث الماركسي السابق نفسه يأخذ بمنهج التفكير ذاته عندما يريد معالجة البطالة، أو الجريمة أو تعاطي المخدرات.

إن ما قيل عن الباحث الماركسي في هذا التوضيح ينطبق على الباحث الدوركايمي، حيث يتجه تفكيره إلى نظرية التماسك الاجتماعي لأنها تتوافق مع مبادئه الفكرية التي ينتمي إليها. كما أن استخدامه لنظرية الصراع الاجتماعي كعامل مفسر للظواهر الاجتماعية يتناقض مع مبادئه الفكرية.

أما بالنسبة للباحث الماركسي، على افتراض أنه يريد دراسة الانتحار كظاهرة اجتماعية، فإنه ينطلق من مفاهيم ومقولات نظرية الصراع الاجتماعي لهذه الظاهرة وغيرها من الظواهر الاجتماعية، فيبدأ، مثلاً، كخطوة أولى بطرح سؤال البحث الاتي،" ما العوامل الاجتماعية للانتحار؟".

وكخطوة ثانية للإجابة عن هذا السؤال، يعود الباحث إلى مفاهيم ومقولات نظرية الصراع الاجتماعي ليستنتج أو يستقرئ منها العوامل والأسباب الاجتماعية الدافعة إلى الانتحار.

"ووفقاً لنظرية الصراع هناك صراع على الحقوق بين ذوي الامتيازات والذين لا يملكون هذه الامتيازات وهذا الأمر متأصل في علاقتهم ببعضهم بعضاً" (جونز، 2010، 53). وانطلاقاً من ذلك" فإن نظرية الصراع تعطي اهتماماً أكبر للصراع الموجود في العلاقات بين الجماعات التي توزع عليهم الامتيازات بعدم التساوي، وتقول إن محتوى الثقافة ينبغي أن ننظر إليه كوسيلة لاستمرارية علاقات عدم التساوي" (جونز، 2010، 58).

وتتنوع أنواع عدم المساواة وأشكالها في مجتمع ما،" فالجماعات المختلفة يمكن أن تمتلك كميات غير متساوية من القوة والسلطة والاعتبار أو الثروة أو كل هذه الأشياء ومزايا أخرى" (جونز، 2010، 52).

ترتكز نظريات الصراع على أشكال عدم المساواة، وكذلك على أنواع المزايا التي تعدّها موزعة بشكل غير متساوي، لكن هذه النظريات تشترك في حقيقة ثابتة مفادها أن أساس عدم المساواة هو سيطرة الجماعات ذوي المزايا على الجماعات التي لا تمتلك هذه المزايا (انظر: جونز، 2010، 52 – 53).

إن تبني الباحث الماركسي لنظرية الصراع يقوده إلى معرفة أن حرمان الشخص لحقوقه سبب من الأسباب الاجتماعية للانتحار.

وقد يضع الباحث نتيجة لاستنتاجاته واستقراءاته حول موضوع البحث إجابة مؤقتة أخرى ليجيب عن سؤال البحث، مثلاً، "إن استغلال العامل وحرمانه من نتائج عمله هو سبب الانتحار"... وهكذا".

في الخطوة الثالثة يقوم الباحث بتبني نظرية الصراع الاجتماعي، فمثلاً، يستخلص من نظرية الصراع الاجتماعي الفرضيتين الآتيتين: (لا يؤدي حرمان الشخص من حقوقه إلى الانتحار) أو (لا يؤدي استغلال العامل وحرمانه من نتائج عمله إلى الانتحار).

في الخطوة الرابعة يختبر الباحث الفرضيات بإخضاعها لاختبارات أمبريقية للتأكد من مدى صحتها ومطابقتها للواقع. فإن أثبت الاختبار صحتها وتطابقها مع الواقع، يكون الباحث قد أجاب عن السؤال الذي طرحه في بداية بحثه، وإن لم يثبت الاختبار الأمبريقي صحة الفرضية أو الفرضيات، ففي هذه الحال، ترفض أو تعدَّل وفقاً لما يحصل عليه الباحث من وقائع جديدة.

وفي العلوم الاجتماعية تواجه الباحث العديد من المفاهيم المبهمة والغامضة أحياناً التي تتطلب من الباحث، للاستفادة منها في البحث، التعامل معها وفق إجراءات منهجية محددة، ولكي تؤدي المفاهيم وظائفها بشكل فعَّال يجب أن تكون دقيقة وواضحة ومتفقاً عليها، ولا يتحقق ذلك إلا" باستخدام التعاريف المفاهيمية والإجرائية. يصف التعريف المفاهيمي المفاهيم باستخدام المصطلحات الأولية والمشتقة. كما تشير التعاريف الإجرائية إلى الإجراءات والأنشطة التي يجب اتباعها من قبل الباحثين لملاحظة الظاهرة الممثلة بالمفهوم تجريبياً. ومن ثمَّ تربط التعاريف الإجرائية بين المستوى المفاهيمي – النظري ومستوى التجربة الملاحظة" (فرانكفورت، ناشميناز، 2004، 60 – 61).

لقد وضح Bridgman معنى مفهوم الإجرائية بقوله:" يتبلور مفهوم الطول حيث تتبلور إجراءات قياس الطول؛ أي أن مفهوم الطول لا يتضمن شيئاً أكثر من مجموعة من الإجراءات أو العمليات التي يحدد الطول من خلالها. عموماً نحن لا نعني شيئاً بالمفهوم إلا مجموعة من الإجراءات، فالمفهوم مرادف لما يقابله من إجراءات" (Bridgman, 1980, p.5).

" ويمكن أيضا لمنظومة المعارف النظرية المتطورة أن تصبح منهجاً للبحث. بهذا المعنى فإن المنهج هو نظرية موثقة بالتجربة" (دياب، 2010، 256).

وهذا يعني أن الباحث يحقق المعنى التجريبي للمفاهيم النظرية من خلال التعاريف الإجرائية Operational Definitions، فهي تمد" جسراً بين المستويين النظري المفاهيمي والتجريبي – المُلاحظ. يبين التعريف الإجرائي مجموعة الإجراءات التي تصف الأنشطة التي يحتاجها الباحث لتأسيس الوجود التجريبي، أو درجة وجود الظاهرة التي يتم وصفها من خلال المفهوم. وهو بذلك يعرِّف ما الذي يجب فعله وما الذي يجب ملاحظته من أجل إدخال الظاهرة قيد الدراسة ضمن مجال خبرة الباحث وفهمه"

(فرانكفورت، ناشميناز، 2004، 43 – 44). ولتوضيح آلية تحويل مفهوم نظري إلى إجراء سنستعين بدراسة أجراها ملفين سيمان Melvin Seeman حول مفهوم "الاغتراب" ويضم هذا المفهوم، كما اقترح سيمان خمسة معاني للاغتراب، ومن ثمَّ خمسة تعاريف مفاهيمية: غياب القوة، وغياب المعنى، وغياب المبدأ، والعزلة، وإقصاء النفس. وسنطبق على مفهوم غياب القوة: توقع الأفراد أن سلوكهم لا يمكن أن يؤثر في النتائج التي يرغبونها. وكوسيلة لتحويل مفهوم "غياب القوة" إلى إجراء قدم السؤال الآتي:" افترض أن هناك مشروع قانون جديد تعتقد أنه غير عادل أو ضار ماذا تعتقد أنك تستطيع أن تفعل؟ فالأشخاص التي ستكون إجاباتهم لا يستطيعون فعل شيء، يصنفون ضمن فئة" غياب القوة" كما استخدمت أسئلة أخرى لتعريف غياب القوة إجرائياً مثل: 1 – إذا بذلت بعض المجهود لتغيير هذا القانون، ما احتمال نجاحك؟ 2 – هل حاولت أن تؤثر في قانون صادر عن الكونكرس؟ (انظر: فرانكفورت، ناشميناز، 2004، 45 – 47). وهذا يعني أن الباحث – من خلال عناصر الاستبانة – ينقل التعاريف المفاهيمية إلى ضروب سلوكية يمكن ملاحظتها مباشرة.

وتأتي عملية تكوين الاستبيان من حيث النتيجة كترجمة لعملية الربط بين النظرية والمنهج، ويمثل المنهج وفق هذا التصور جملة من المبادئ والقواعد التي يعتمدها الباحث في تصميم مجموعة من الإجراءات المنهجية التي تُمكِّنه من التأكد من صحة مقولات النظرية، وتأتي قوة البحث العلمي على مقدار تماسك هذه الإجراءات وارتباطها ببعضها.

إنّ طريقة التفكير في معالجة الظواهر الاجتماعية تعد خارج إطار المنهج العلمي وفق أصحاب الرؤية الأولى التي تميز بين النظرية والمنهج، وإذا ما تم النظر الى المنهج على أنه مجموعة إجراءات عملية فقط، لكنها تعد بحد ذاتها منهجا في التفكير وطريقة لها خصوصياتها إذا ما تمت النظرة بطريقة أشمل، وتظهر تداعياتها في كل الخطوات اللاحقة في البحث العلمي بالنسبة لأصحاب الرؤية الثانية التي ترى عدم إمكانية الفصل بين النظرية والمنهج، وأن النظرية الاجتماعية بحد ذاتها منهجاً يشمل طريقة التفكير والتطبيق في الوقت نفسه.

تاسعاً: الاستقراء وبناء النظرية:

يستخدم الباحث الاجتماعي الاستقراء كمنهج في البحث للوصول إلى معارف جديدة تساعده في الكشف عن سبب ظاهرة معينة، أو بغية تكوين نظرية جديدة، وفي بعض الأحيان قد لا يخطر على بال الباحث أنه سيتوصل إلى نظرية جديدة قبل البدء بتنفيذ

البحث. والباحث في عمله هذا يستند إلى الدراسات الميدانية والملاحظة المباشرة للظواهر في سياقها الطبيعي. فقد يطرح الباحث تساؤلاً حول سبب ظاهرة معينة، فيجد أثناء إنجاز البحث أن هناك ضرورة للتحول إلى تساؤل آخر، ويؤدي إلى بناء نظرية، والمثال الآتي يوضح ذلك.

لقد أثار انتشار ظاهرة تدخين المارجيوانا بين الطلاب في حرم الجامعات في أميركا اهتمام البحَّاثة الأميركيين (Takeuchi, 1974)، فحاولوا الإجابة عن السؤال الآتي: لماذا بعض الطلبة يدخن المارجيوانا، بينما بعضهم الآخر لا يفعل ذلك؟

وقد أعطت عينة من الجمهور الأميركي تفسيرات عديدة حول أسباب تعاطي المخدِّر، فالأشخاص الذين لم يتعاطوا المخدر، أفاد معظمهم أن الطلاب الذين يدخنون المارجيوانا هم فاشلون في دراستهم، ويتعاطون المخدر كوسيلة هروب أمام عجزهم على مواجهة صعوبات الدراسة. أما الأشخاص الذين كانوا مع تدخين المارجيوانا، أفادوا بأن تدخينها هو عملية تفتيش عن قيم جديدة يستبدل بها الطالب القيم الحالية المخادعة التي يرفضها.

لكن تحليل" تاكوتشي Takeuchi " للبيانات التي توافرت لديه، لم يدعم التفسيرات السابقة." فالطلاب الذين أقروا بأنهم يدخنون المارجيوانا، كان سجل علاماتهم مماثلاً تقريباً لسجل علامات الطلاب الذين لا يدخنون المارجيوانا. كما أن كلْتي المجموعتين أظهرتا اندماجاً في حياة الحرم الجامعي ونشاطاته التقليدية، باستثناء وجود بعض الفروقات المعينة بين الطلاب، وهي الآتية:

1– إن احتمال تدخين المارجيوانا عند النساء أقل مما هو عليه عند الرجال.

2– إن احتمال تدخين المارجيوانا عند الطلبة الآسيويين (وهم يشكلون قطاعاً كبيراً من جمهور طلاب جامعة هاواي) أقل مما هو عند الطلبة غير الآسيويين.

3 – إن احتمال تدخين المارجيوانا عند الطلبة التي تقطن مع أهلها هو أقل مما هو عند الطلبة التي تعيش وحدها في شقق خاصة..

وبعد تحليل تاكوتشي للمتغيرات الثلاثة، تبين له مدى علاقتها بتدخين المارجيوانا. فحوالي 10% من النساء الآسيويات، اللواتي يقطنَّ مع أهلهنَّ، دخنَّ المارجيوانا، مقابل حوالي 80% من الرجال غير الآسيويين الذين كانوا يقطنون في شقق. (من الضروري الإشارة هنا إلى أن المقارنة لو كانت مع النساء غير الآسيويات بدلاً من الرجال لكان ذلك أكثر دقة من الناحية العلمية لخصوصية وضع الإناث مقابل الذكور، لكن المرجع

الذي بين يدي الباحث لم يشرْ إلى ذلك) كما كشفت الدراسة وجود دافع قوي لدى الطلاب لتعاطي المخدر.

وعلى هذا الأساس، اتخذ التفسير منحىً آخر، فبدلاً من تفسيرهم لماذا بعض الطلاب يدخن المارجيوانا؟، تحولوا إلى تفسير لماذا بعضهم لا يدخن المارجيوانا؟

إن تفسير البحاثة للتساؤل الجديد: لماذا بعض الناس لا يدخن المارجيوانا؟ انطلاقاً من الافتراض بأن جميع الطلاب عندهم بعض الدافع لتجربة المخدرات، أوصلهم إلى طرح نظرية" القيود الاجتماعية" ليفسروا بها الفروقات الناجمة بين الطلاب، بالنسبة لظاهرة تدخين المارجيوانا. فكلما ازدادت القيود الاجتماعية على الطالب، الطالبة، خفَّ احتمال تدخين المارجيوانا عنده أو عندها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الباحثين لم تخطر على بالهم هذه النظرية عند بداية تصميمهم لهذا البحث (انظر: مجذوب، 2003، 53 – 56).

عاشراً: النتائج:

1- إن العلاقة بين النظرية الاجتماعية ومنهج البحث العلمي علاقة تبادلية تفاعلية، حيث يؤديان وظيفتيهما في إطار البحث العلمي الاجتماعي بشكل متناسق ومنسجم مع طبيعة مشكلة البحث وأهدافه، فدور كل منهما يكمِّل دور الآخر.

2- تستخدم النظرية في بعض الحالات، كنظرية ومنهج، وذلك عندما ينظر الباحث إليها كطريقة في التفكير، وعندما يحدد رؤيته للظاهرة وأشكالها والعوامل المؤدية لها والآثار المترتبة عليها والعوامل المفسرة لها من خلال مقولاتها النظرية. وفق هذا التصور هي منهج شامل للبحث على مستوى الرؤية وطريقة التفكير واختيار الفرضيات والتساؤلات، وعلى مستوى الإجراءات المنهجية التفصيلية ذات الصلة بالتطبيق.

3- النظرية الاجتماعية ذات المفاهيم الغامضة والمبهمة، يمكن للباحث الاستفادة منها، بوساطة التعاريف الإجرائية، وذلك بالانتقال بمفاهيمها من المستوى المفاهيمي – النظري إلى المستوى التجريبي المُلاحظ.

4- تختلف الأطر النظرية والإجراءات المنهجية المتبعة في دراسة الظاهرة الاجتماعية ذاتها في حال دراستها من قبل باحثين ينتميان إلى مدرستين مختلفتين في علم الاجتماع، مثلاً، المدرسة الوضعية والمدرسة الماركسية.

5 – تسهم النظريات الاجتماعية والمناهج بتطوير المعرفة الاجتماعية وتحسينها نوعياً، فهي تضيف وتعدِّل وتنقِّح فيها باستمرار، وفي بعض الأحيان ترفض بعضاً منها وتستبدله بالأفضل، وهي في الوقت نفسه تتطور وتتعدَّل وتتجدد من وقت لآخر وفقاً لتغير وتبدُّل وتجدُّد محتوى المعرفة العلمية في مخزون كل علم من العلوم الاجتماعية.

الخاتمة:

عالجت هذه الدراسة مسألة العلاقة بين النظرية الاجتماعية والمنهج العلمي في إطار البحث العلمي الاجتماعي، وتناولت الوظيفة التي تؤديها النظرية، وكذلك المنهج العلمي في إنجاز البحث العلمي الاجتماعي، وتحقيق الأهداف المرجوة منه. كما تطرقت إلى مسألة النظرية من وجهتي نظر، الأولى تفصل بين النظرية والمنهج، والثانية تنظر إلى النظرية كنظرية وكمنهج في آن معاً. كما عالجت الدراسة مسألة الانتقال من المستوى المفاهيمي – النظري إلى المستوى التجريبي الملاحظ. وأوضحت الدراسة كيف أن الأطر النظرية والإجراءات المنهجية للدراسة، تختلف عند دراسة الظاهرة نفسها من قبل باحثَيْن ينتميان إلى اتجاهين أو مدرستين مختلفتين في علم الاجتماع. كذلك أشارت الدراسة إلى أن النظريات الاجتماعية ومناهج البحث العلمي عندما تسهم في تطوير المعرفة الاجتماعية، فهي في الوقت نفسه تتطور بما يتناسب مع محتوى المعرفة الاجتماعية والحالات المستجدة المرافقة لها.

كما لفتت الدراسة النظر إلى الخطر المترتب على الانغماس في القضايا النظرية دون منهجية علمية مناسبة، أو الضياع في تفاصيل الإجراءات المنهجية دون نظرية علمية، كما نوهت إلى دور فكرة الرؤية العلمية في إمكانية التوفيق بين النظرية والمنهج، وعدم الانجراف إلى هذا الطرف أو ذاك على حساب الآخر، وتحقيق عملية التكامل بينهما.

المصادر والمراجع:

1. أبو علام، رجاء محمود، مناهج البحث في العلوم النفسية والتربوية، ط 6، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2007.
2. أبو زينة، فريد كامل وزملاؤه، مناهج البحث العلمي: طرق البحث الكمي، ط2، دار المسيرة، عمان، 2007.
3. أجغيم، الطاهر، "إشكالية المنهج وواقع البحث السوسيو أنثروبولوجي، الباحث الاجتماعي، عدد 10، جامعة منتوري، قسنطينة، سبتمبر 2010.
4. بانتشيرجي، أنول، بحوث العلوم الاجتماعية المبادئ والمناهج والممارسات، ترجمة خالد بن ناصر ال حيان،الطبعة العربية، مطبعة رشاد برس، بيروت، 2015.
5. بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، ط3، وكالة المطبوعات، الكويت، 1977.
6. جلبي، علي عبد الرزاق، قضايا علم الاجتماع المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1984.
7. جونز، فيليب، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، ترجمة محمد ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010.
8. الحوراني، محمد عبد الكريم، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع: التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع، جامعة اليرموك، اربد، 2008.
9. دوركايم، إميل، الانتحار، ترجمة حسن عودة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011.
10. دوركايم إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1988.
11. دياب، علي محمد، " دور مناهج البحث العلمي العامة المعاصرة في تطوير نظرية الجغرافية البشرية"، المجلد 26، العدد الأول + الثاني، مجلة جامعة دمشق، دمشق، 2010.
12. شتا، السيد علي، المنهج العلمي وعلم الاجتماع، الجزء الثالث، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 1995.
13. الضامن، منذر، أساسيات البحث العلمي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2007.

14. عاقل، فاخر، أسس البحث العلمي في العلوم السلوكية، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.
15. عبيدات، ذوقان وآخرون، البحث العلمي: مفهومه – أدواته – أساليبه، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1985.
16. فرانكفورت، شافا، ناشميناز، دافيد ناشميناز، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة ليلى الطويل، بترا للنشر والتوزيع، دمشق، 2004.
17. كتب عربية، قرارات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، ترجمة مصطفى خلف عبد الجواد، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، 2002.
18. ليلة، علي،" بناء النظرية الاجتماعية" الكتاب الأول، سلسلة النظريات الاجتماعية، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، د. ت. ن.
19. مجذوب، فاروق، طرائق ومنهجية البحث في علم النفس، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2003.

20. Bridgman, Percy W., The Logic of Modern Physics, New York: Ayer, 1980.

21. مأخوذ عن: (فرانكفورت، ناشميناز، 2004، 44).

22. Popper, K. La logique de la decouverte scientifique, Paris, Payot, 1973.

23. مأخوذ عن: (مجذوب، 2003، 69).